الملك سلمان حصر سياسته في هدف تمكين أبناءه من الحكم

يكشف تتبع نهج الملك سلمان بن عبد العزيز أنه حصر سياسته في هدف تمكين نجله ولي العهد محمد وبقية أشقائه من الحكم على حساب إقصاء واسع لأمراء العائلة الحاكمة.

وتظهر الحقائق أن تركة الملك سلمان في الرياض وفي العائلة المالكة وفي المملكة كانت قوية بما يكفي لكي تمهّد الطريق واسعاً لابنه محمد.

ولد الملك سلمان سنة 1935. هذا الملك المريض والميال إلى التكتم هو الابن الخامس والعشرين من الأبناء المعروفين لمؤسس المملكة، عبد العزيز بن سعود (المتوفى سنة 1953).

ويبرز موقع (أوريان 21) الفرنسي، أن الملك سلمان من المحتمل أن يكون آخر حاكم من جيله. وقبل أن يصبح ملكًا، كان أحد أقوى أفراد الأسرة الحاكمة ضمن عائلة آل سعود وفي جهاز الدولة، وكذلك في الحياة الثقافية للمملكة.

ويشدد لموقع الفرنسي على أن إرث سلمان عميق بما يكفي لكي يكون عهد ابنه، محمد بن سلمان، مرسوماً مسبقاً وإلى حد كبير.

ولا يزال سلمان يشكل ضمانة لابنه لدى الدوائر الدينية، تماما كما كان جدارا واقيا له عندما لمّح محمد بن سلمان بأنه لن يجعل من القضايا القومية العربية الرئيسية (مثل مواجهة إسرائيل) أولوية.

فعلى الرغم من أنه يبدو متحرراً من تقاليد الأسرة الحاكمة، إلا أن محمد بن سلمان يتبع استراتيجية تحاكي بشكل ملحوظ تلك التي انتهجها والده.

لا تُعتبر حُزم الإصلاحات التي أطلقها الأب والابن ابتداءً من 2015 ثورية، بقدر ما هي عمل تسريعي تم تحت ضغط وضع خطير على العائلة المالكة بشكل عام، وعلى آل سلمان بشكل خاص.

فقد طالت موجة الربيع العربي منذ 2011 دولة أضعفها الفتور في العلاقات مع الإدارة الأمريكية لباراك أوباما، ثم انخفاض أسعار النفط ابتداء من 2014.

وفضلا عن ذلك، أثارت التغييرات التي فرضها سلمان منذ 2015 في ترتيب ولاية العهد امتعاض جزء من العائلة المالكة، وليس فقط من آخر أبناء بن سعود والإخوة غير الأشقاء لسلمان الذين كان بإمكانهم الطموح إلى تولي العرش.

وقد تولى محمد بن سلمان فعليا منصب نائب الملك ابتداء منذ 2017 بتهميش آخر المنافسين والمعارضين داخل العائلة المالكة.

وتم إضفاء الطابع الرسمي على هذا الدور، في سبتمبر/أيلول 2022، عندما أوكل منصب رئيس مجلس الوزراء – الذي هو اختصاص الملك نفسه منذ عهد فيصل – إلى محمد بن سلمان.

قد يتم إبراز الاختلافات بين الملك سلمان الكتوم وابنه ذو الحضور الإعلامي المكثف، عندما حدوث توتر داخلي أو دبلوماسي، لكن ذلك يسهّل في الواقع تمرير سياسة يتفق عليها الرجلان.

يغذي الأب والابن قومية مرتابة وريبة تجاه أية حركة إصلاحية مستقلة، كما خبِر ذلك رجال الدين الوهابيين ونظراؤهم الشيعة والمبادِرات بالحركة النسوية.

كل منهما شغوف بالاعتراف الدولي، مع أن كليهما نتاج تعليم محلي بحت، على عكس معظم نظرائهما في الخليج، إذ تعلم الأول في مدرسة الأمراء داخل مجمع المربع (الرياض)، والثاني في جامعة الملك سعود (بالرياض أيضا) لنيل ليسانس في الحقوق، قبل أن يشتغل في منطقة الرياض والديوان الملكي.

وقد تولى الاثنان مقاليد وزارة الدفاع الاستراتيجية لتحضير صعودهما إلى صف ولي العهد، وقاما بحصر التسلسل الهرمي للعائلة المالكة وجهاز الدولة حول الأعضاء الأكثر ولاء في فرعهما، بتسلط جاف غالبا، وجعلا من الرياض مختبرا وواجهة لعهدهما.

في الدولة الوراثية المؤسسة انطلاقا من عهدي سعود وفيصل، كان التوازن يرتكز بين الفروع التي أسسها الملك المؤسس على تقسيم إدارة المملكة إلى احتكارات محروسة بغيرة. قليلة هي الهيئات الإدارية التي كانت تفلت من هذا التقسيم القطاعي.

وهكذا تعود وزارة الخارجية إلى فيصل وأبنائه، ووزارة الدفاع إلى سلطان وأبنائه، والداخلية إلى نايف وأبنائه. وقبل أن يطيح الأمير سلمان بهذا النظام عند تبوئه سدة الملك والسيطرة على جهاز الدولة بأكمله، كان له نصيبه: منطقة الرياض.

كحاكم للعاصمة منذ 1955، وبطريقة مستمرة منذ 1963، صنع سلمان لنفسه تدريجيا دور نائب ملك غير رسمي وغير قابل للعزل، بينما كان أشقاؤه وإخوته غير الأشقاء يتداولون على العرش.

وسمح ذلك لسلمان بأن يكون ليس المحاور الضروري لجميع الزوار من رؤساء الدول والمسؤولين الأجانب فحسب، بل أيضا المراقب الدقيق لحياة العائلة المالكة والشائعات والتداولات بين مؤسسات العاصمة. يلعب أمير الرياض دور الميسر والحكم الرئيسي في النزاعات العائلية.

تعطي الشائعات (أكثر من الحقائق الثابتة) إلى سلمان صوتاً حاسماً في مجلس الأسرة الذي تم تأسيسه في عهد الملك فهد (الذي حكم من 1982 إلى 2005) أو في هيئة البيعة التي أسسها الملك عبد ا (الذي حكم من 2005 – 2015) لتسوية المسائل الشائكة للخلافة على العرش.

وقد سمح له قربه من شقيقه الملك فهد بكسب دعم مالي وسياسي مطلق، على الأقل حتى السكتة الدماغية التي أصابت فهد سنة 1995 وجعلت من الأمير عبد ا، الأخ غير الشقيق لسلمان، الوصي الفعلي على المملكة.

من جهة أخرى تم إسكات الجانب الوهابي تدريجيا في تاريخ السعودية قصد نزع الشرعية عن "الصحوة الإسلامية"، (التي حملت معها صعود الحركات الإسلاموية منذ الستينيات) وإعادة مركزة الرواية الرسمية على عائلة آل سعود وحدها.

رافق هذه الطريقة في إعادة مركزة التاريخ تحييدٌ لرجال الدين، بمن فيهم أحفاد محمد بن عبد الوهاب، وإعادة التحكم في المؤسسات التي كانوا يسيطرون عليها (مثل شرطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو وزارتي التربية والعدالة).

ولم يكن اعتلاء سلمان العرش في 2015 وتولي نجله نيابة المُلك سوى مرحلة إضافية في هذا التهميش – الذي كان عنيفاً أحياناً – للأعضاء الأكثر انتقادا من رجال الدين السعوديين.

ويعد الإعلان في 2022 عن "يوم التأسيس" الذي حدد إنشاء أول إمارة لآل سعود في سنة 1727، تاريخ تولي محمد بن سعود الحكم في واحة الدرعية، وليس في التاريخ المعتمد تقليديا (1745-1744، سنة إقامة العهد بين بن سعود والداعية محمد بن عبد الوهاب)، تتويجاً لهذا التحول التاريخي.

كانت سمعة سلمان كـ"أمير الأدباء" و"المؤرخين" راسخة عندما أصبح ملكاً. فرعايته المباشرة، في كثير من الأحيان، للمؤسسات الثقافية في الرياض لا تشجع فقط على انتشار الملصقات التي تحمل صورته والثناء الذي يوجه له في كل تدشين متحف أو مكتبة أو ندوة.

وإنما تمنح لسلمان دوراً غير رسمي كمشرف على تاريخ آل سعود وبالتالي، بشكل أعم، المشرف على الرواية الوطنية الحديثة للبلاد.

ويضفي ذلك شرعية على الأشغال الكبرى التي ما انفكت تغيّر العاصمة باستمرار. وهكذا تم الإعلان عن المخطط الاستراتيجي الشامل لمدينة الرياض (MEDSTAR) في 1996، بالتزامن مع التحضيرات للاحتفال بالذكرى المئوية للغزو السعودي للرياض في 1902، والذي كان لا يزال يعتبر الحدث التأسيسي للمملكة.

تم تسريع بناء المؤسسات العامة وأشغال الترميم الضخمة تحضيرا للاحتفالات التي بدأت في 1999. سمعة سلمان كمتعلّم -والتي مازالت تُنشر على نطاق واسع – وفرّت له ثقلاً موازيا مفيداً، خاصّة أمام السياسة الخارجية العدوانية المنتهجة من قبل المملكة منذ 2015، لا سيما في اليمن.

ففضلا عن الكراسي البحثية الجامعية التي سبق تأسيسها في المملكة برعاية الأمير سلمان، أضيف مركز الملك سلمان للإغاثة والأعمال الإنسانية المكلّف بتوفير المساعدة السعودية لسوريا وخاصة لليمن.

يرث الابن مفارقات الأب، كما ترث المملكة السياسات التي تم تخطيطها في الرياض. ومع ذلك، تتميز السياسة القمعية تجاه رجال الدين بالصبغة المحافظة.

وتبقى ترقية شكل من أشكال علمنة الثقافة والسلوكيات حكراً على فرع واحد من العائلة (محمد بن سلمان وأشقائه وإخوانه غير الأشقاء في الأسرة المالكة)، الذي يحدد خطوطها ووتيرتها.

ولا يمنع التبني المعلن لمبادئ النيوليبرالية لتعزيز التنمية الاقتصادية للمملكة انتهاج سياسة التنبيهات العنيفة باسم المصلحة العليا للدولة.

لم يكن لسلمان بن عبد العزيز الوقت الكافي ولا الهامش ليكون ملكاً، غير أن تركته في الرياض وفي العائلة المالكة وفي المملكة كانت قوية بما يكفي لكي تمهّد الطريق واسعاً لابنه محمد.